

حكمة الإسلام في تحريم الخمر

حسن لانكولوغ*

كتاب حكمة الإسلام في تحريم الخمر دراسة نفسية اجتماعية الذي ألفه الدكتور مالك بدري يُعدّ فريداً من نوعه، حيث يركّز على الناحية النفسية والاجتماعية الناجمة عن إدمان الخمر. الكتاب يتكون من سبعة فصول ومقدمتين، إحداها للطبعة الإنجليزية والأخرى للعربية.

سنورد محتوى هذه الفصول باختصار مع تعليقنا عليها، ثم نعطي تقييماً عاماً للكتاب ككل.

1 - في الفصل الأول أشار المؤلف إلى أنه بعد تحريم الخمر في حياة الرسول ﷺ وأيام الصحابة لم يذكر التاريخ إلا سبع حالات تم فيها توقيع عقوبة السكر. إن دل هذا على شيء فإنما يدلّ على ندرة حالات السكر بعد التحريم وكانت الطريقة التي اتبعها القرآن الكريم لتحريم الخمر هي التدرج حيث استغرق مدة ثلاث سنوات ابتداءً من المقارنة بين منافع الخمر ومضارها إلى أن وصل إلى تحريمها بتاتاً.

في الفصل الثاني توصل الكاتب إلى نتيجة أن حضور الإسلام هو العامل الوحيد الذي جاء بهذا التغيير في حياة المسلمين في المدينة بالنسبة لشرب الخمر أيام الرسول ﷺ.

في الفصل الثالث سرد المؤلف ما توصل إليه علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا المعاصرين، بعد دراسات وأبحاث ميدانية كثيرة بأن مدى انتشار الكحول والإدمان في مجتمع أو حضارة ما يتأثر بثلاثة عوامل مهمة. أولاً درجة الضغوط النفسية والتوترات

* أستاذ بكلية التربية بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

التي تحدثها تلك الحضارة في المجتمع، وثانيها الاتجاهات السائدة في تلك الحضارة نحو تناول المسكرات، وثالثها قدرة الحضارة المعنية على إعطاء أفراد المجتمع طرقاً بديلة ونشاطات تستطيع امتصاص تلك التوترات والضغوط السائدة التي كانت حافزاً لاستهلاك الكحول.

ولا شك أن العوامل الثلاثة التي تؤثر في انتشار الكحول وجدت أخصب التربة وأفضل الظروف المناخية لتعميق جذورها النفسية والاجتماعية في مجتمع جزيرة العرب الجاهل الذي أغرق نفسه في الخمر، كما دل عليه التاريخ والأشعار التي ساقها المؤلف.

في الفصل الرابع عقد المؤلف مقارنة بين الطريقة السلوكية وهي الطريقة المعروفة بالتحصين التدريجي والطريقة القرآنية في معالجة تحريم الخمر. وعلى الرغم من أن الطريقة السلوكية التي اكتشفت أخيراً واستعملت في معالجة الإدمان لا تختلف كثيراً عما وصلت إليه الطريقة القرآنية من نتيجة في معالجة المشكلة نفسها طالما أن الشروط المؤدية إلى الاعتماد على الخمر أدخلت في الاعتبار. وقد أكد المؤلف أيضاً أن ما وصل إليه علم النفس الاجتماعي الحديث من أن نظرية الكف التبادلي الحضاري في حالة الإدمان على الخمر قد استعملها المسلمون أيام الرسول ﷺ خاصة بعد تحريم الخمر بنزول الآيتين 90 و91 من سورة المائدة.

استنبط المؤلف من هذه الحادثة أن المدة التي استغرقت ثلاث سنوات منة التدرج في تحريم الخمر ليست العامل الوحيد الذي جعل المسلمين يمتنعون عن شرب الخمر ولكن العامل الحقيقي هو تقبل الدين الجديد، فيصبح الإنسان الجاهلي بين عشية وضحاها شخصاً آخر. ومن ثم فإن الإحساس الجديد بالسلام والأمن داخل الأسرة المسلمة والإحساس بالعزة والكرامة لدى النساء قد أشاع جواً من الرحمة والسكينة مما ساعد على تخفيف حدة مشكلات الذين أقنعوا عن شرب الخمر. كما أن الأطفال الذين تربوا في هذه البيوت كانوا أقل عرضة للإصابة بالقلق العاطفي الذي كانوا يعرضونه بعد البلوغ بالتفاخر القبلي الزائف أيام الجاهلية.

في الفصل الخامس شرح المؤلف نظريات علم النفس الحديث التي تؤكد أن هناك عوامل متعددة تؤدي إلى تغيير اتجاهات الجماعة وقيمها وبالتالي تؤدي دوراً مهماً في التغيير الاجتماعي الأخلاقي والحضاري لأمة معينة. من هذه العوامل، وجود القائد

الأمراض الجلدية، والربو وغيرها من الاضطرابات.

في الفصل السابع عقد المؤلف مقارنة بين العقوبة الإسلامية لشرب الخمر والعلاج النفسي للمدمنين.

فقد سرد المؤلف تجاربه الواسعة الطويلة التي لا تقل عن ربع قرن من الزمان في مجال العلاج النفسي وكذلك الدراسات السابقة التي قام بها غيره من العلماء والمعالجين النفسيين في المجال نفسه فقد قام بمقارنة نوعين من العلاج الذي استخدم في علاج المدمنين هما الطريقة التحليلية الفرويدية وطريقة العلاج السلوكي، وكانت الطريقتان قد استعملتا في معالجة الأمراض والاضطرابات النفسية ومن ضمنها الإدمان والاعتماد على الكحول.

فقد استنتج المؤلف بعد استعراض حالات عولجت بالطريقتين التحليلية والسلوكية أن الوسائل التي توصل إليها الطب النفسي مع أبحاث علم النفس والدراسات الإنسانية تؤكد أن أفضل الوسائل لكبح جماح شرب الخمر والامتناع عنها يمكن تلخيصها في استخدام وسائل الضغط الاجتماعي، والقذوة الحسنة التي يجدها المريض في جماعات أصدقاء المدمنين التي تتكون عضويتها من مدمنين على الكحول تم شفائهم بنفس الأساليب الجماعية، واستخدام الجوانب الروحية التي تؤكد اعتراف المدمن بضعفه أمام غول الكحول، وحاجته لقوة إلهية تتولى إنقاذه من الإدمان.

نجد من هذا التلخيص أن الإسلام قد عالج مشكلة الاعتماد على الكحول بوسائل شملت نتائج كل هذه الأبحاث، وزادت عليها بالتركيز على اقتلاع عادة إدمان الخمر من جذورها قبل أن تصبح إدماناً مستحكماً.

وهنا كان واضحاً أن الحكمة مما قام به الرسول ﷺ عندما أمر المسلمين بتوبيخ شارب الخمر وتبكيته عندما حثا التراب على وجه شارب الخمر. إن الحكمة من ذلك كانت تعريف الشارب بمدى خطورة الإثم الذي ارتكبه وتأكيد موقف المجتمع المسلم من فعله.

وفي الفصل الثامن سرد المؤلف خبراته الميدانية الطويلة العريضة في العلاج النفسي ومن ضمنها علاج مدمني الكحول حتى وصل أخيراً إلى القول بأن المؤمن عندما يصل به التأثير بوحى الله تعالى سيجعل من نفسه رقيباً على نفسه، أو بلغة علم النفس

النفسي، وهذه الملاحظات هي:

1 - فيما يتعلق بعنوان الكتاب وهو حكمة الإسلام في تحريم الخمر: دراسة نفسية اجتماعية كان الأولى حسب رأيي أن تقدم الدراسة النفسية الاجتماعية قبل تحريم الخمر، لأن ذلك يعطي الدراسة طابعاً نفسياً اجتماعياً بدل أن يكون طابعاً فقهياً شرعياً.

2 - من طبيعة الدراسات النفسية الاجتماعية أن العوامل التي تؤثر فيها تكون لا حد لها ومن المستحيل ضبطها. فالمقارنة التي عقدها المؤلف بين الطريقة التحليلية الفرويدية والطريقة السلوكية حيث جاء المؤلف ببيانات تؤيد الطريقة السلوكية. فهل هذا يكفي لاستنباط أن الطريقة الإسلامية تمشي مع الطريقة السلوكية كما يوحي بذلك استنتاج المؤلف؟ فماذا سيحدث للطريقة الإسلامية إذا جاء باحث آخر ببيانات تؤيد الطريقة التحليلية الفرويدية؟ فلذا نرى أنه لا فائدة من الإشارة إلى أن هذه الطريقة أو تلك تؤكد الطريقة الإسلامية أو ترفضها فيكفي أن نوضحها كما هي دون الانحياز إلى أي منهما.

3 - حبذا لو أن المؤلف شرح كيفية اكتساب الإيمان حسب النظريات النفسية لا سيما نظريات التعلم لأن الإيمان - حسب الآيات المتعددة في القرآن الكريم - له درجات، في أي درجة من الإيمان له قوة فعالة في منع الانتكاس والإدمان؟ اعتقد أن نظريات التعلم تستطيع أن توضح لنا بعض هذه التساؤلات.

4 - كل هذه الملاحظات لا تقلل من قيمة الكتاب بوصفه كتاباً رائداً في مجال الدراسات النفسية والاجتماعية ليس فقط في علاج الإدمان، بل قد يفتح طرقاً أخرى لتقدم العلوم النفسية والاجتماعية.

5 - أرى أن يترجم هذا الكتاب إلى اللغات الإسلامية المختلفة كالأوردو والسواحلي والملايو وغيرها.